البَابُ السَابِعُ

الطمع

افتتح الباب السابع فقال : وقال رضى الله عنه :

[ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع] .

قلت : البسوق هو الطول ، قال تعالى :

(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ)[1] أى طويلات .

والبذر الذريعة ، والطمع تعلق القلب بما فى أيدى الخلق وتشوف القلب إلى غير الرب ، وهو أصل شجرة الذل ، فما بسقت أغصان شجرة الذل إلا على ذريعة الطمع ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى : والله ما رأيت العز إلا فى رفع الهمةعن الخلق ، وإنما كان الطمع هو أصل الذل ، لأن صاحب الطمع ترك ربًّا عزيزًا وتعلق بعبد حقير ، فاحتقِر مثلَه ، ترك ربًّا كريمًا وتعلق بعبد فقير ، فافتقر مثله ، ترك رفع همته إلى الغنى الكريم وأسقط همته إلى الدنىّ اللئيم ، إن الله يرزق العبد على قدر همته . وأيضًا كان عبدًا لله حرًّا مما سواه فصار عبدًا للمخلوق وعبدًا لنفسه وهواه ، لأنك ما أحببت شيئًا وطمعت فيه إلا كنت عبدًا له . وما أيست من شىء ورفعت همتك عنه إلا كنت حرًّا منه ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبَتِ المَطَامِعُ أَنْ تُهَشِّمَنِي ... إِنِّي لِمَعْوَلِهَا صَفًا صَلْدُ
الْعَبْدُ حُرٌّ مَاعَصَى طَمَعًا ... وَالْحُرُّ مَهْمَا طَاعَهُ عَبْدُ

قال فى التنوير : وكن أيها العبد إبراهيميًّا ، فقد قال أبوك إبراهيم ، صلوات الله عليه وسلامه : (لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ)[2] .

---

(١) سورة ق : ١٠ .

(٢) الأنعام : ٧٦ .

وكل ما سوى الله آفل إما وجودًا وإما إمكانًا ، وقد قال سبحانه : (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ)[١] .

فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم ، ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق ، فإنه يوم زج به فى المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى . قال : فاسأله ، قال : حسبى من سؤالى علمه بحالى .

فانظر كيف رفع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق ، فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله ، بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل ومن سؤاله ، فلذلك سلمه من نمروذ ونكالِه ، وأنعم عليه بنواله وأفضاله ، وخصه بوجود إقباله . ومن ملة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمة بالودّ إلى الله ، لقوله تعالى : (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)[٢] .

والغنى إن أردت الدلالة عليه فهو فى اليأس .

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا أيأس من نفع غيرى لها ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى ، وهذا هو الكيمياء والإكسير الذى من حصل له حصل له غنى لا فاقة فيه ، وعِزٌّ لا ذل معه ، وإنفاق لا نفاد له ، وهو كيمياء أهل الفهم عن الله تعالى .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : صحبنى إنسان وكان ثقيلاً علىّ فباسطته فانبسط ، وقلت : يا ولدى ما حاجتك ولم صحبتنى ؟ قال : يا سيدى قيل لى إنك تعلم الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك ، فقلت له : صدقت وصدق من حدّثك ، ولكن إخالك ، أى أظنك ، لا تقبل ، فقال : بل أقبل ، فقلت : نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين أعداء وأحباء ، فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكونى بشوكة لم يردنى الله بها فقطعت نظرى

---

(١) الحج : ٧٨ . (٢) الشعراء : ٧٧ .

عنهم ، وتعلقت بالأحباء فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشىء لم يردنى الله به فقطعت يأسى منهم ، وتعلقت بالله فقيل لى : إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمنا لك فى الأزل .

وقال مرة أخرى لما سئل عن الكيمياء قال : أخرج الخلق من قلبك ، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك ، وليس يدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده ، إنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه ، وانحياشه إليه بقلبه وتحرزه من رق الطمع ، وتحليه بحلية الورع ، وبذلك تَحسُن الأعمال ، وتَزكو الأحوال قال تعالى :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَاعَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)[1] .

فحسن الأعمال إنما هو الفهم عن الله ، والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ، ورفع الحوائج إليه ، والدوام بين يديه ، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله ، وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه ، وتطهر من الطمع فى الخلق ، فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم .

وقدم علىّ رضى الله عنه البصرة فدخل جامعًا فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى وجد الحسن البصرى فقال : يافتى إنى سائلك عن أمر ، فإن أجبت عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك ، وكان قد رأى عليه سمتًا وهديًا ، فقال الحسن : سل عما شئت ، فقال : ما ملاك الدين ؟ قال : الورع ، قال : فما فساد الدين ؟ قال : الطمع ، قال : اجلس فمثلك من يتكلم على الناس .

قال : وسمعت شيخنا أبا العباس المرسى رضى الله عنه يقول : كنت فى ابتداء أمرى بالإسكندرية فجئت إلى بعض من يعرفنى فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ، فقلت فى نفسى : لعله لا يأخذه منى ، فهتف بى هاتف : السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين .

---

(١) الكهف : ٧ .

وسمعته يقول : صاحب الطمع لا يشبع أبدًا ، ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة ؟ الطاء والميم والعين ، فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم فى شأن الرزق ، فقد سبقت قسمته وجودك ، وتقدم ثبوته ظهورك ، واسمع ما قال بعض المشايخ : أيها الرجل ما قدّر لماضغيك أن يمضغاه فلابد أن يمضغاه ، فكله ويحك بعز ولا تأكله بذل اهـ .

وقال أبو الحسن الوراق : من أشعر نفسه محبة شىء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ، ومن طمع فى شىء ذل له وبذلك هلك .

وقال أبو بكر الوراق : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ لقال الشك فى المقدور ، فلو قيل له : ما حرفتك ؟ لقال : اكتساب الذل ، فلو قيل له ما غايتك ؟ لقال- الحرمان اهـ .

وفى معنى هذا أنشدوا :

اضْرَعْ إِلَى اللهِ لَا تَضْرَعْ إِلَى النَّاسِ
وَاقْنَعْ بِعِزٍّ فَإِنَّ الْعِزَّ فِى الْيَاسِ
وَاسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِى قُرْبٍ وَذِى رَحِمٍ
إِنَّ الْغَنِىَّ مَنِ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ

ولما كان سبب وجود الطمع هو الوهم والجزع ذكره بأثره فقال :

[**ما قادك شىء مثل الوهم**] .

قلت : يقال قاد الشىء يقود : جره إليه ، وقدْت البهيمة : جررتها إليك ، والوهم : أول الخاطر ، وهو أضعف من الشك ، والمراد هنا ما خالف اليقين فيصدق بالظن والشك .

يقول رضى الله عنه : ما جَرّك شىء وقادك إلى الطمع فى الخلق والتملق لهم والتذلل لما فى أيديهم شىء مثل الوهم ، يعنى أنك لما توهمت أن بيدهم نفعًا أو ضرًّا أو عطاء أو منعًا طمعت فيهم وتذلّلت لهم واعتمدت عليهم وخفت منهم ، ولو حصل لك اليقين أن أمرهم بيد الله وأنفسهم فى قبضة الله ، عاجزين عن نفع أنفسهم فكيف يقدرون على نفع غيرهم لقطعت يأسك منهم ، ولرفعت

همتك عنهم ، ولتعلقت همتك برب الأرباب ، ولنبذت الأصحاب والأحباب .

أو تقول : ما قادك شيء عن حضرة الشهود والأعيان إلا توهمك وجود الأكوان ، ولو انهتك عنك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ، ولو أشرق نور الإيقان لغطى وجود الأكوان .

قال فى التنوير : وإنما منع العباد من السبق إلى الله جواذب التعلق بغير الله ، فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله جذبها ذلك التعلق إلى ما به تعلقت فكرة راجعة إليه ، مقبلة عليه ، فالحضرة محرمة على من هذا وصفه ، وممنوعة على من هذا نعته .

قال بعض العارفين : لا تظن أن تدخل الحضرة الإلهية وشيء من ورائك يجذبك ، وافهم هنا قوله سبحانه :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[1] .

والقلب السليم : هو الذى لا تعلق له بشيء دون الله ، وقوله تعالى :

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)[2] .

يفهم منه أيضًا أنه لا يصح مجيئك إلى الله بالوصول إليه إلا إذا كنت فردًا مما سواه وقوله تعالى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى)[3] .

يفهم أنه لا يأويك إليه إلا إذا صح يتمك مما سواه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ » .

أى يحب القلب الذى لا يشفع بثنوية الآثار ، ثم قال : وقال بعضهم : لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده معه اهـ .

فتحصل أن الوهم حجب عن الله العوام والخواص . وأما خواص الخواص فلم يحجبهم عن الله شيء .

أما العوام فقادهم إلى التعلق بالخلق ، ومنعهم عن السير إلى الملك الحق ، فاشتغلوا بمراقبة الأحباب ، وعداوة من عاداهم من الأصحاب ، ففاتهم محبة

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ . (٢) الأنعام : ٩٤ . (٣) الضحى : ٦ .

الحبيب ومراقبة الرقيب .

وأما الخواص فقادهم الوهم إلى ثبوت الآثار والوقوف مع الأنوار ، فقنعوا بذلك ولم يتشوفوا إلى ما وراء ذلك ، فالقناعة من الله حرمان ، وليس الخبر كالعيان . وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : والله ما حجب الناس عن الله إلا الوهم ، والوهم أمر عدمى لا حقيقة له اهـ .

وأما خواص الخواص فلم يحجبهم عن الله شىء ، قطعوا حجاب الوهم ، وحصل لهم من الله العلم والفهم ، فلم يتعلقوا بشىء ، ولم يحجبهم عن الله شىء ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

ولما كان الوهم ينشأ عنه الطمع ، والطمع ينشأ عنه الذل والعبودية ، واليقين ينشأ عنه الورع ، والورع ينشأ عنه العز والحرية نبه عليه بقوله :

[أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت فيه طامع] .

قلت : إنما كان الإنسان حرًّا مما أيس منه ، لأنه لما أيس من ذلك الشىء رفع همته عنه وعلقها بالملك الحق ، فلما علق همته بالملك الحق سخّر الحق تعالى له سائر الخلق ، فكانت الأشياء كلها عبيدًا له ومسخَّرَة لأمره .

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن ، فإذا شهدت المكوِّن كانت الأكوان معك ، فمن كان عبدًا لله كان حرًّا مما سواه ، وإنما كان الإنسان عبدًا لما طمع فيه ، لأن الطمع فى الشىء يقتضى المحبة له والخضوع والانقياد إليه فيكون عند أمره ونهيه ، لأن حبك الشىء يعمى ويصم ، وهذه حقيقة العبودية ، وفى هذا المعنى قيل :

الْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنَعْ والْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمِعْ

وما أقبح الإنسان الذى يريد سيده منه أن يكون مَلِكًا وهو يريد أن يكون مملوكًا ، يريد سيده أن يجعله حرًّا وهو يريد أن يكون عبدًا ، خلق له سيده الكون بأسره خادمًا له عند نهيه وأمره ، فجعل هو يخدم الكون بنفسه ويتعبد لأقل شىء وأخسه .

يقول المصنف فى التنوير فى مناجاة الحق تعالى على ألسنة الهواتف : إنا أجللنا قدرك أيها العبد أن نشغلك بأمر نفسك ، فلا تضعن قدرك يا من رفعناه ،

ولا تذَلنَّ بحوالتك على غيرى يا من أعززناه ، ويحك أنت أجل عندنا من أن تشتغل بغيرنا ، لحضرتى خلقتك ، وإليها طلبتك وبجواذب عنايتى لها جذبتك ، فإن اشتغلت بنفسك حَجبتُك ، وإن اتبعت هواها طردتُك ، وإن أخرجت عنها قَرّبتّك ، وإن توددت لى بإعراضك عما سواى أجبتك اهـ .

فتحصّل أن محبة الأشياء والطمع فيها هو سبب الذل والهوان . والتعبد لسائر الأكوان وأن الإياس من الأشياء ورفع الهمة عنها هو سبب العز والحرية والتيه على الأقران ، ولله در القائل حيث قال :

رَأَيْتُ الْقَنَاعَةَ رَأْسَ الْغِنَى فَصِرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكْ
فَأَلْبَسَنِي عِزُّهَا حُلَّةً يَمُرُّ الزَّمَانُ وَلَا تُنْتَهَكْ
فَصِرْتُ غَنِيًّا بِلَا دِرْهَمٍ أَتِيهُ عَلَى النَّاسِ تِيهَ الْمَلِكْ

قلت : وهذا هو الغنى الأكبر ، والإكسير عند الأكياس ، ويسمى فى اصطلاح الصوفية الورع ، أعنى الورع الخاص ، وهو رفع الهمة عن السوى .

قال فى لطائف المنن : واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل ، فإن من جملة ورعهم تورعهم أن يسكنوا لغيره ، أو يميلوا بالحب لغيره ، أو تمتد أطماعهم بالطمع فى غير فضله وخيره . ومن ورعهم ورعهم عن الخوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب . ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات ، والاعتماد على الطاعات ، والسكون إلى أنوار التجليات . ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة ، تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الآخرة صفاء .

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء : خرجت من بغداد أريد الموصل ، فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت علىّ بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيّناتها ومشتهياتها فأعرضت عنها ، فعرضت على الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها ، فقيل لى : يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنا ، فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك .

قال الشيخ عبد الرحمن المغربى وكان مقيمًا بشرقى الإسكندرية : حججت سنة من السنين ، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية ، فإذا النداء علىّ : إنك العام القابل عندنا ، فقلت فى نفسى : إذا كنت العام القابل ها هنا فلا أعود إلى الإسكندرية ، فخطر علىّ الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن ، فأنا يومًا على ساحلها أمشى إذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ، ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادة على البحر ومشى على الماء ، فقلت فى نفسى : لم أصلح للدنيا ولا للآخرة ، فإذا علىّ يقال : من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا .

وقال أبو الحسن : الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه ، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله عن الله والقول بالله والعمل لله وبالله ، على البيّنة الواضحة، والبصيرة الفائقة ، فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبّرون ، ولا يختارون ، ولا يريدون ، ولا يتفكرون ، ولا ينظرون ، ولا ينطقون، ولا يبطشون ، ولا يمشون ، ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فهم مجموعون فى عين الجمع لا يفترقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى .

وأما أدنى الأدنى فالله يورّعهم عنه ثوابًا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث ، فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى ، وميراثه التعزز لخلقه ، والاستكبار على مثله ، والدلالة على الله بعلمه ، فهذا هو الخسران المبين ، والعياذ بالله العظيم من ذلك . والأكياس يتورعون عن هذا الورع ، ويستعيذون بالله منه ، ومن لم يزوَّد بعلمه وعمله افتقارًا لربه واحتقارًا لنفسه وتواضعًا لخلقه فهو هالك . فسبحان من قطع كثيرًا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم ، كما قطع كثيرًا منُ المفسدين بفسادهم عن موجدهم : (فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ)[1] اهـ .

فانظر فهّمك الله سبيل أوليائه ، ومنّ عليك بمتابعة أحبائه ، هذا الورع الذى ذكره هذا الشيخ رضى الله عنه ، هل كان فهمك يصل إلى هذا النوع من

---

(١) فصلت : ٣٦ .

الورع ؟ ألا ترى قوله : قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله ، وعن الله ، والقول بالله ، والعمل لله ، وبالله على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ؟ فهذا هو ورع الأبدال والصديقين ، لا ورع المتنطعين الذى ينشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم اهـ .

قلت : هذا الورع الذىٰ ذكره الشيخ هو ورع الخواص أو خواص الخواص ، وهو الذى يقابل الطمع كما تقدم فى قولِ الحسن البصرى : صلاح الدين الورع ، وفساد الدين الطمع ، لا ورع العوام الذى هو ترك المتشابه والحرام ، فإنه لا يقابل الطمع كل المقابلة ، وحاصله صحة اليقين ، وكمال التعلق برب العالمين ، ووجود السكون إليه ، وعكوف الهم عليه ، وطمأنينة القلب به ، حتى لا يكونَ له ركون إلى شىء من السِّوى فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد ، وبه يصلح كل عمل مُقرِّب وحال مسعِد .

قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر ، وهو ألا تتحرك إلا لله . وورع فى الباطن ، وهو ألا يدخل قلبك إلا الله .

ذكر أن بعضهم كان حريصًا على أن يرى أحدًا ممن هذا صفته ، فجعل يجتهد فى طلبه ، ويحتال على التوصل إليه ، بأن يأخذ الشىء بعد الشىء من ماله ، ويقصد به الفقراء والمساكين ، ويقول لمن يعطيه خذلا لك ، فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جوابًا مطابقًا لما أراده ، إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته ، وحصل على مقصوده ومنيته وذلك أنه قال لأحدهم : خذلا لك ، فقال له آخذه لا منك ، فإن كان للعبد استشراف إلى الخلق أو سبقية نظر إليهم قبل مجىء الرزق أو بعده فمقتضى هذا الورع والواجب فى حق الأدب ألا ينيل نفسه شيئًا مما يأتيه على هذا الحال عقوبة لنفسه فى نظره إلى أبناء جنسه ، كقصة أيوب الحمال مع أحمد بن حنبل رضى الله عنهما وهى معروفة .

وكما روى عن الشيخ أبى مدين رضى الله عنه : أنه أتاه حمال بقمح فنازعته نفسه وقالت يا ترى من أين هذا ؟ فقال أنا أعرف من أين هو ياعدوة الله ، وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعضِ الفقراء عقوبة لها لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى .

وقد قيل : إن أحل الحلال لم يخطر على بال ولا سألت فيه أحدًا من النساء والرجال .

قال الشيخ عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : الورع ألا تتحرك ولا تسكن إلا رأيت الله فى الحركات والسكون ، فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقى مع الله ، فالحركة ظرف لما فيها ، كما قال : ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه ، فإذا رأيت الله ذهبت .

وقال أيضًا : أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط وهذا مقام التوكل ، ولهذا قال بعضهم : الحلال هو الذى لا ينسى الله فيه اهـ على نقل ابن عباد رضى الله عنه .

وإذا أراد الله تعالى أن يعز عبده ويرفعه إلى هذا المقام ، قطع عنه زمام الوهم والجزع ، وحرره من رقة الطمع ، فقاده إليه بملاطفة الإحسان أو بسلاسل الامتحان كما أشار إلى ذلك بقوله :

[من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان ، قيد إليه بسلاسل الامتحان] .

أقسام العباد

قلت : قد قسم الله تعالى عباده ثلاثة أقسام : أهل الشمال ، وأهل اليمين ، والسابقون ، أما أهل الشمال ، فلا كلام عليهم ، إذ لا إقبال لهم على الله أصلا . وأما أهل اليمين ، فلهم إقبال بوجه ما لكن لا خصوصية لهم ، لأنهم قنعوا بظاهر الشريعة ولم يلتفتوا إلى سلوك طريقة ولا حقيقة ، وقفوا مع الدليل والبرهان ، ولم ينهضوا إلى مقام الشهود والعيان ، ولا كلام معهم أيضا . وأما السابقون ، فقد أقبلوا على الله متوجهين إليه طالبين الوصول إلى معرفته ، وهم فى ذلك على قسمين : قسم أقبل على الله بملاطفة إحسانه وقيامًا بشكر إنعامه وامتنانه وهم أهل مقام الشكر . وقسم أقبل على الله بسلاسل الامتحان وضروب البلايا والمحن وهم أهل مقام الصبر أهل المقام الأول ، فأقبلوا على الله طوعًا . وأهل المقام الثانى أقبلوا على الله كرهًا ، قال تعالى :

(وللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)[١] .

قال أبو مدين رضى الله عنه : سنة الله استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ، ليرجعوا إليه بنعمته ، فإنْ لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون ، لأن مراده عز وجل رجوع العباد إليه طوعًا وكرهًا .

فقوم بسط الله عليهم النعم وصرف عنهم البلايا والنقم ، ورزقهم الصحة وأمدهم بالأموال والعافية فأدوا حقها وقاموا بشكرها ، وتشوقوا إلى معرفة المنعم بها ، فكانت مطية لهم على السير إليه ، ومعونة لهم على القدوم عليه ، أخرجوها من قلوبهم ، وجعلوها فِي أيديهم .

قليل ما هم ، قال تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[٢] .

وفى مثل هؤلاء ورد الحد يث : « نِعْمَتِ الدُّنْيَا مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ ، عَلَيْهَا يَبْلُغُ الخَيْرَ ، وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

قال بعض أصحابنا : جعل عليه الصلاة والسلام الدنيا مطية للمؤمن حاملة له ، ولم يجعل المؤمن مطية لها حتى يتكلف حملها ، فهذا يدل على أنها فى يده يستعين بها على السير إلى ربه ، لا أنها فى قلبه حتى يرتكب المشقة فى طلبها ، والله تعالى أعلم .

وقوم أمدهم الله بالنعم ، وبسط لهم فى المال والعافية ، وصرف عنهم النقم ، فشغلهم ذلك عن النهوض إليه ، ومنعهم من المسير إلى حضرته ، فسلب ذلك عنهم ، وضربهم بالبلايا والمحن ، فأقبلوا على الله بسلاسل الامتحان : « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ » .

وقد مدح الله الغنى الشاكر والفقير الصابر بمدح واحد ، فقال تعالى فى حق سليمان عليه السلام : (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب)[٣].

---

(١) الرعد : ١٥ . (٢) سبا : ١٣ . (٣) ص : ٣٠ .

وقال فى حق أيوب عليه السلام : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[١] .

وقال بعضهم : لأن أعطى فأشكر أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر .

وكان الشيخ أبو العباس المرسى يرجّح الغنى الشاكر على الفقير الصابر ، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبى عبد الله الترمذى الحكيم يقول : الشكر صفة أهل الجنة والفقر ليس كذلك ، قاله فى لطائف المنن .

والتحقيق أن الفقير الصابر هو الغنى الشاكر وبالعكس ، لأن الغنى إنما هو بالله ، فإذا استغنى القلب بالله فصاحبه هو الغنى الشاكر . ولا عبرة بما فى اليد ، فقد تكون اليد معمورة والقلب فقير ، وقد يكون القلب غنيًّا بالله واليد فقيرة ، وقد تكون اليد معمورة والقلب مع الله غنيًّا به عما سواه .

قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الزاهد : إذا دخلت على بلدة كذا فاذهب إلى أخى فأقرئه منى السلام ، واطلب منه الدعاء فإنه ولى من أولياء الله تعالى . قال فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك ، فعجبت من ذلك وطلبته قيل لى هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، فبعد ساعة وإذا هو قد أتى فى أفخر مركب وملبس وكأنما هو ملك فى مركبه ، قال فازداد تعجبى أكثر من الأولين ، فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت لا يمكننى مخالفة الشيخ فاستأذنت فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والشارة الحسنة ، فقلت له أخوك فلان يسلم عليك قال لى : جئت من عنده ؟ قلت : نعم ، قال : إذا رجعت إليه فقل : له إلى كم اشتغالك بالدنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها ؟ فقلت : والله هذا أعجب من الأولى . فلما رجعت إلى الشيخ قال : اجتمعت بأخى فلان ؟ قلت : نعم ، قال : فما الذى قال لك ؟ قلت :

---

(١) ص : ٤٤ .

لا شيء ، قال : لابد أن تقول لى ، فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال : صدق أخى فلان وهو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره ، وأنا آخذها من يدى ولى إليها بقايا التطلع اهـ . من لطائف المنن للمؤلف رحمه الله ورضى الله عنه .

فأحوال الأولياء لا تنضبط بفقر ولا غنى ، لأن الولاية أمر قلبى لا يعلمها إلا من خصهم بها وبالله التوفيق .

ومن أقبل على الله بملاطفة إحسانه وجب عليه شكر ما أسدى إليه من لطائف كرمه وامتنانه ، وإلا زالت عنه بسبب كفره وعصيانه ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[من لم يشكر النعم ، فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها] .

قلت : اتفقت مقالات الحكماء على هذا المعنى وأن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، وقالوا أيضًا : من أُعطِى ولم يشكر سُلِب منها ولم يشعر ؛ فمن شكر النعمة فقد قيدها بعقالها ، ومن كفرها فقد تعرّض لزوالها . قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[1] .

أى إن الله لا يغير ما بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الشكر ، وتغييرهم الشكر هو اشتغالهم بالمعاصى والكفر ، ولذلك قال الجنيد رضى الله عنه : الشكر ألا يعصى الله بنعمه ، وقيل الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر ، وتنكفّ على الزواجر .

وقال فى لطائف المنن : الشكر على ثلاثة أقسام : شكر اللسان ، وشكر الأركان ؛ وشكر الجنان ، فشكر اللسان التحدث بنعم الله ، قال تعالى :

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)[2] .

وشكر الأركان العمل بالطاعة لله تعالى ، قال تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا)[3] .

---

(١) الرعد : ١١ . (٢) الضحى : ١١ . (٣) سبأ : ١٣ .

وشكر الجنان بالاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هى من الله تعالى ، قال الله تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ)[١] .

ومن القسم الأول قول النبى صلى الله عليه وسلم :

« التَّحَدُّثُ بِالنِّعَمِ شُكْرٌ » ومن الثانى : « أَنَّهُ صلى الله عليه وَسَلم قَامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ أَتَتَكَلَّفُ كُلَّ ذٰلِكَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر ؟ فَقَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » اهـ

وسئل أبو حازم رضى الله عنه : ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيرًا أعلنته ، وإذا رأيت بهما شرًّا سترته ، قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيرًا وعيته ، وإذا سمعت بهما شرًّا دفنته .

قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقًّا هو لله فيهما ، قال : فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبرًا ، وأعلاه علمًا ، قال : فما شكر الفرج ؟ قال كما قال الله تعالى :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) إلى قوله : (غَيْرُ مَلُومِينَ)[٢]

قال : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت شيئًا غبطته استعملتهما ، وإن رأيت شيئًا مقته كففتهما اهـ .

واعلم أن الناس فى الشكر على ثلاث درجات : عوام وخواص وخواص الخواص ، فشكر العوام على النعم فقط ، وشكر الخواص على النعم والنقم ، وشكر خواص الخواص الغيبة فى المنعم عن شهود النعم والنقم .

والنعم التى يقع الشكر عليها ثلاثة أقسام ؛ دنيوية ، كالصحة والعافية والمال الحلال . ودينية كالعلم والعمل والتقوى والمعرفة . واخروية ، كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل . وأجلّ النعم الدينية التى يتأكد الشكر عليها نعمة الإسلام والإيمان والمعرفة ، وشكرها هو اعتقاد أنها منة من الله تعالى بلا واسطة ولا حول ولا قوة ، قال الله تعالى :

---

(١) النحل : ٥٣ .

(٢) المعارج : ٢٩ ، ٣٠ .

(وَلٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) ثم قال : (فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً)[1] .

قال أبو طالب المكى رضى الله عنه بعد كلام : فلو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال أى شىء كنا نصنع ؟ وعلى أى شىء نعول ؟ وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو ؟ فهذا من كبائر النعم . ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان ، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة ، وادعاء الإيمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوة وحول هو كفر نعمة الإيمان ، وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الإيمان ، لأنه بدّل شكر نعمة الإيمان كفرًا اهـ .

استدراج الله العبد

فإن غفل العبد عن شكر هذه النعم ثم دامت صورتها عنده فلا يغتر ، فقد يكون ذلك استدراجًا كما أشار إلى ذلك بقوله :

[خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجًا - سنستدرجهم من حيث لا يعلمون -] .

الاستدراج : هو كمون المحنة فى عين المنة ، وهو مأخوذ من درج الصبى : أى أخذ فى المشى شيئًا بعد شىء ، ومنه الدرج الذى يرتقى عليه إلى العلو ، كذلك المستدرج هو الذى تؤخذ منه النعمة شيئًا بعد شىء وهو لا يشعر . قال الله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)[2] .

أى نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم وهم لا يشعرون ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

فخف أيها المريد من دوام إحسان الحق إليك بالصحة والفراغ وسعة الأرزاق ، ودوام الأمداد الحسية أو المعنوية ، مع دوام إساءتك معه بالغفلة والتقصير ، وعدم شكرك للملك الكبير ، أن يكون ذلك استدراجًا منه تعالى ،

---

(١) الحجرات : ٧ ، ٨ .

(٢) سورة القلم : ٤٤ .

قال تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَايَعْلَمُونَ) .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها ، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا .

وقال ابن عطاء رضى الله عنه : كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ونسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة ، ثم قال الحق تعالى : (وَأُمْلِي لَهُمْ)[١] .

أى نمدهم بالعوافى والنعم حتى نأخذهم بغتة ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْء حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُون)[٢] .

أى فلما غفلوا عما ذكروا به من العقوبة والعذاب فتحنا عليهم أبواب النعم وبسطنا عليهم الأرزاق الحسية ، (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) من النعم وتمكنوا منها (أخذناهم) بالهلاك (بغتة) أى فجأة (فإذا هم مبلسون) آيسون من كل خير ، وهكذا عادة الله فى خلقه أن يرسل إليهم من يذكرهم بالله ويدلهم على الله ، فإذا أعرضوا عنه وردوا عليه قوله بسط عليهم النعم الحسية حتى إذا اطمأنوا وفرحوا بها دمرهم الله وأخذهم بغتة ليكون ذلك أشد فى العقوبة ، قال الشاعر :

* وَأَعْظَمُ شَيْء حِينَ يَفْجَؤُكَ الْبَغْتُ *

وقال تعالى : (وَلَايَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُم لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)[٣] .

فالواجب على الإنسان إذا أحس بنعمة ظاهرة أو باطنة حسية أو معنوية ، أن يغرف حقها ويبادر إلى شكرها نطقًا واعتقادًا وعملاً ، فالنطق الحمد والشكر باللسان ، والاعتقاد شهود المنعم فى النعمة وإسنادها إليه ، والغيبة عن الواسطة بالقلب مع شكرها باللسان :

---

(١) القلم : ٤٥ . (٢) الأنعام : ٤٤ . (٣) آل عمران : ١٧٨ .

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ الله » . « أَشْكَرُكُمْ للنَّاس أَشْكَرُكُمْ للهِ » .. فإذا قال له جزاك الله خيرًا فقد أدى شكرها .

والشكر بالعمل صرفها فى طاعة الله كما تقدم ، فإن لم يقم بهذا الواجب خيف عليه السلب والاستدراج وهو أقبح .

والحاصل : أن الشكر هو الأدب مع المنعم ، ومن جاءت على يديه ، فإن أساء الأدب أدب ، وقد يؤدب فى الباطن وهو لايشعر كما أشار إلى ذلك بقوله :

[من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه ، فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الأمداد وأوجب البعاد ، فقد يقطع المدد من حيث لايشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد . وقد تقام مقام البعد وأنت لاتدرى ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد] .

قلت : من الأمور المؤكدة على المريد الصادق أن يراعى الأدب مع الله فى كل شىء ، ويلتزم التعظيم لكل شىء . ويحفظ الحرمة فى كل شىء ، فإن أخل بشىء من هذه الأمور وأساء الأدب مع ربه فليبادر بالتوبة والاعتذار مع الذلة والانكسار ، فإن أخر التوبة إلى وقت آخر انقطعت عنه الأمداد ، واستوجب الطرد والبعاد ، وقد لايشعر بذلك فى الحين ، فيحتج لنفسه ويقول لو كان هذا سوء أدب لانقطع عنى المدد ، وهذا منه جهل قبيح يفضى إلى العطب إن لم تدركه العناية من رب الأرباب ، وإنما كان هذا جهلا من المريد لانتصاره لنفسه وقت سوء أدبه ، وعدم شعوره بنقصان قلبه ، إذ لو كان عالمًا بمخادع النفس لاتهمها وما انتصر لها ، ولو كان عارفًا بربه لشعر بنقصان قلبه ، فقد جمع بين جهالة وجهل ؛ فالجهالة هى سوء الأدب الذى صدر منه ، والجهل هو مخاصمته عن نفسه ، وإنكاره أن يكون ماصدر منه سوء أدب ، وما احتج به من كونه لم يحس بالعقوبة ولو كان ذلك سوء أدب لأحس بقطع الأمداد ولأوجب الطرد والبعاد لاينهض ، فقد يقطع عنه المدد وهو لايشعر . ومثال ذلك الأشجار التى على الماء ، فإذا قطع عنها الماء لايظهر أثر العطش عليها إلا بعد حين فإذا طال الأمر يبست شيئًا فشيئًا ، كذلك قلب المريد قد لايحس بقطع المدد فى القرب حتى يغرق فى الوهم ويحترق بالحس ، فإن كانت له سابقة خير تاب وأصلح

ماأفسد فيرجع إليه المدد ، وإن لم تكن له سابقة رجع إلى وطنه وأقام فى بعده ، نسأل الله السلامة من سلب نعمته بعد عطائه ؛ ولو لم يكن من العقوبة إلا منع المزيد من السير أو الترقى لكان كافيًا ، لأن من لم يكن فى زيادة فهو فى نقصان ، ومن كان يومه شرًّا من أمسه فهو الخسران ، وقوله فى الاحتجاج أيضًا : لو كان هذا سوء أدب لأوجب البعاد ، فقد يقام مقام البعد وهو يظن أنه فى محل القرب ، لأن مراتب القرب والبعد لانهاية لها ، ومامن مقام فى القرب إلا وما بعده أعظم منه حتى يكون ذلك القرب بالنسبة إلى مابعده بعدًا ، ولو لم يكن ذلك البعد إلا أن يتركك مع ماتريد لكان كافيًا فى الطرد والبعد ، إذ ترك العبد مع هواه وشهواته من علامة الإهمال ، وإخراج العبد عن هواه وماتركن إليه نفسه من علامة الاعتناء والإقبال ، فإذا اعتنى الله تعالى بعبد وأراد أن يوصله إلى حضرته شوش عليه كل ماتركن إليه نفسه وأزعجه طوعًا أو كرهًا حتى يؤيسه من هذا العالم ، ولم يبق له ركون إلى شىء منه ، فحينئذ يصطفيه لحضرته ويجتبيه لمحبته ، فليس له حينئذ عن نفسه أخبار ولامع غير الله قرار .

وأصل ذلك قضية سيدنا موسى عليه السلام لما علم الله تعالى محبته لعصاه وركونه إليها قال له الحق تعالى :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ؟ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) أى حوائج أخر (قَالَ) له (أَلْقِهَا يَامُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى) فلما فر عنها وقطع يأسه منها (قَالَ) له (خُذْهَا وَلَا تَخَفْ)[1] .

لأنها لاتضرك حيث رجعت إليها بالله . ويقال للفقير وماتلك بيمينك أيها الفقير ؟ فيقول هى دنياى أعتمد عليها وأقضى بها مآربى فيقال له ألقها من يدك . فإذا هى حية تسعى كانت تلدغه وهو لايشعر ، فإذا أيس منها واستأنس بالله واطمأن به قيل له خذها ولا تخف لأنك تأخذها بالله لابنفسك ، والله تعالى أعلم .

---

(١) طه : ١٧ - ٢١ .

ومواطن الآداب التى بها يخل المريد فيعاقب عليها ثلاثة : آداب مع الله ورسوله ، وآداب مع الشيخ ، وآداب مع الإخوان .

الآداب مع الله

فأما الآداب مع الله باعتبار العوام ، فبامتثال أمره واجتناب نهيه ، ومع رسوله باتباع السنة ومجانبة أهل البدعة ، فإذا قصروا فى الأمر وخالفوا فى النهى عوقبوا عاجلا فى الحس أو آجلا فى المعنى والحس . وباعتبار الخواص مع الله بالإكثار من ذكره ومراقبة حضوره وإيثار محبته . زاد الشيخ : وحفظ الحدود ، والوفاء بالعهود ، والتعلق بالملك الودود ، والرضا بالموجود ، وبذل الطاقة والمجهود اهـ . ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ، بإيثار محبته ، والاهتداء بهديه ، والتخلق بأخلاقه ، فإذا قصروا فى ذكره أو حالت قلوبهم فى غير حضرته ، أو مالت محبتهم إلى شىء سواه ، أو قصروا فى شىء مما تقدم أو حلوا عقدة عقدوها مع الله عوقبوا فى الحس بالضرب أو السجن أو الإذاية باللسان أو فى المعنى وهو أشد وكقطع المدد وإيجاب الطرد والإقامة مقام البعد ، وباعتبار خواص الخواص وهم الواصلون يكون مع الله بالتواضع معه فى كل شىء ، والتعظيم لكل شىء ، ودوام معرفته فى تجليات الجلال والجمال ، أو مع اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار . ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالتحقق بحسبه ، وتعظيم أمته ، وشهود نوره كما قال أبو العباس المرسى : لى ثلاثون سنة ماغاب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ، ولو غاب عنى ماعددت نفسى من المسلمين .

فإذا قصر العارف فيما تقدم فى حقه أو فى حق غيره من الآداب عوقب فى الحس أو فى المعنى ، والغالب تيقظه فى الحين فيستدرك ما فات .

(إِنَّ الذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُون)[1] .

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .

فهذه جملة الآداب التى تكون مع الله من العوام والخواص وخواص الخواص . أو تقول : من الطالبين والسائرين والواصلين ، والله تعالى أعلم .

الآداب مع الشيخ

وأما الآداب التى تكون مع الشيخ ، فمرجعها إلى ثمانية أمور : أربعة ظاهرة وأربعة باطنة .

فأما الظاهرة ، فأولها : امتثال أمره وإن ظهر له خلافه ، واجتناب نهيه وإن كان فيه حتفه ، فخطأ الشيخ أحسن من صواب المريد .

وثانيها : السكينة والوقار فى الجلوس بين يديه ، فلا يضحك بين يديه ، ولا يرفع صوته عليه ، ولا يتكلم حتى يستدعيه للكلام أو يفهم عنه بقرائن الأحوال ، كحال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين ، ولا يأكل معه ولا بين يديه ، ولا ينام معه أو قريبًا منه . قال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : ومن آداب المريد مع الشيخ ، ألا يأكل معه ، ولا ينام معه ، ولا يضحك بين يديه ، ولا ينام فى فراشه ولا يجلس فى موضع جلوسه ، ولا يتكلم فى مجلس الشيخ ولو كلمة واحدة ، والكلام فيه سوء الأدب أكثر من كل شىء ، وكل ما يشبه هذه الأوصاف يؤدى لعدم التعظيم والازدراء بجانب الشيخ ، وذلك هو الخسران المبين ، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء والطرد بعد الإقبال . قالوا اجعل عملك ملحًا وأدبك دقيقًا ، وقال الشاعر :

أَدَبُ الْعَبْدِ تَذَلُّلٌ وَالْعَبْدُ لَايَدَعَ الأَدَبْ
فَإِذَا تَكَامَلَ ذُلُّهُ نَالَ الْمَوَدَّةَ وَاقْتَرَبْ

وثالثها : المبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان بنفسه أو بماله أو بقوله ، فخدمة الرجال سبب الوصال ، لمولى الموالى . وقال سيدى عبد الله الهبطى الزجلى رضى الله عنه فى منظومة له فى السلوك :

إِنَّ الْخَدِيمَ ظَنُّهُ جَمِيلُ دلَّ عَلَى فَلَاحِهِ دَلِيلُ

أَهَّلَ نَفْسَه لِخِدْمَةِ الرِّجال ... لكَىْ يَنَالَ مِنْ حَبِيبِهِ الْوِصَالْ
ذلُّ المحِبِّ فى طَلَبِ الْقُرْبِ ... عِزٌّ عَزِيزٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحُبِّ
أَتَى بُيُوتَ الْقُرْبِ مِنْ أَبْوَابِهَا ... فَفُتِّحَتْ لَهُ إِذًا بِأَسْرِهَا
طُوبَى لَهُ بُشْرَى لَهُ اسْتَفَادْ ... وَنَالَ خَيْرَ قُرْبَةٍ وَسَادْ

ثم قال :

مَقَامَكَ أَعْرِفْ أَيُّهَا الْخَدِيمُ ... فَإِنَّهُ مُفَخَّمٌ عَظِيمُ
أَمْسَيْتَ لِلْمَخْدُومِ فِى جِوَارِهِ ... مُشَارِكًا كذاك فِى أَسْرَارِه
لَا تَغْتَبِطْ سِوَى مَقَامِك الرَّفِيعْ ... فَالخَيْرُ كُلُّهُ لَدَيْك جَمِيعْ

ورابعها : دوام حضور مجلسه ، فإن لم يكن فتكرير الوصول إليه ، إذ بقدر تكرير الوصول إليه يقرب الوصول ، فمدد الشيخ جار كالساقية أو القادوس ، فإذا غفل عن الساقية أو القادوس تخرم وانقطع الماء إلى غيره ، وأيضًا تكرير الوصول يدل على شدة المحبة وبقدر شدة المحبة تكون الشربة ، وفى هذا المعنى قال شيخ شيوخنا رضى الله عنه :

لَا مَحَبَّةَ إِلَّا بِأُصُولْ ... وَلَا وُصُولَ إِلَّا غَالِى
وَلَا شَرَابَ إِلَّا مَخْتُومْ ... وَلَا مَقَامَ إِلَّا عَالِى

وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى الله عنه فى كتابه : اعلم أنه لا يقرِّب طالب الوصول إلى الله تعالى شىء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده ، ثم قال : الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين ، والجلوس مع العامى الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل ، كما أن العارف بالله يجمع بين المريد ومولاه بنظرة أو بكلمة ، كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها ، ويرحم الله سيدى المجذوب حيث يقول : الجلسة مع غير الأخيار ، ترذل ولو تكون صافيًا ا هـ المراد منه .

وأما الآداب الباطنية .

فأولها : اعتقاد كماله ، وأنه أهل للشيخوخة والتربية ، لجمعه بين شريعة وحقيقة ، وبين جذب وسلوك ، وأنه قدم النبى صلى الله عليه وسلم .

وثانيها : تعظيمه ، وحفظ حرمته غائبًا وحاضرًا ، وتربية محبته فى قلبه ، وهو دليل صدقه ، وبقدر التصديق يكون التحقيق ، فمن لا صدق له لا سير له ولو بقى مع الشيخ ألف سنة ، ويرحم الله سيدى محمد الشرقى حيث قال : من لا صدق ما عند باش ينفق من لا حق ما جاب إيمار أيا بابا .

وثالثها : انعزاله عن عقله ورياسته وعلمه وعمله إلا مايرد عليه من قبل شيخه ، كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلى رضى الله عنه عند ملاقاته بشيخه ، فهى سنة فى طريقه ، فكل من أتى شيخه فى هذه الطريقة الشاذلية فلابد أن يغتسل من علمه وعمله قبل أن يصل إلى شيخه ، لينال الشراب الصافى من بحر مدده الوافى .

ورابعها : عند الانتقال عنه إلى غيره ، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح وأشنع كل شنيع ، وهو سبب تسويس بذرة الإرادة ، فتفسد شجرة الإرادة لفساد أصلها وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم ، وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل عنهم إلى أهل الباطن إن وجدهم ، ولا يحتاج إلى إذن والله تعالى أعلم .

الآداب مع الإخوان

وأما الآداب مع الإخوان فأربعة :

أولها : حفظ حرمتهم غائبين أو حاضرين ، فلا يغتاب أحدًا ولا ينقص أحدًا ، فلا يقول أصحاب سيدى فلان كمال وأصحاب سيدى فلان نُقَّص ، أو فلان عارف أو فلان ليس بعارف ، أو فلان ضعيف وفلان قوى أو غير ذلك ، فهذه عين الغيبة ، وهى حرام بالإجماع لا سيما فى حق الأولياء ، فإن لحومهم سموم قاتلة كلحوم العلماء والصالحين . فليحذر المريد جهده من هذه الخصلة الذميمة ، وليفر ممن هذا طبعه فراره من الأسد ، فمن أولع بهذا

فلا يفلح أبدًا ، فالأولياء كالأنبياء فمن فرّق بينهم حُرِم خيرَهم وكفر نعمتهم . وقد قال بعض الصوفية : من كسره الفقراء لا يجبره الشيخ ، ومن كسره الشيخ فقد يجبره الفقراء ، وهو صحيح مجرب ، لأن إذاية ولى واحد ليس كإذاية أولياء كثيرة ، ومن كسره الشيخ يشفع فيه الإخوان فيجبر قلب الشيخ ، بخلاف قلوب الفقراء إذا تغيرت قل أن تتفق على الجبر والله تعالى أعلم .

وثانيها : نصيحتهم ، بتعليم جاهلهم ، وإرشاد ضالهم : وتقوية ضعيفهم ولو بالسفر إليه ، فإن فيهم أهل بدايات ونهايات والقوى والضعيف ، فكل واحد يذكره بما يليق بمقامه ، خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون ، كما فى الحديث .

وثالثها : التواضع لهم ، والاستنصاف من نفسك معهم ، وخدمتهم بقدر الإمكان فخديم القوم سيدهم ، فمن عرض له شغل لا ينفعك عنه . فالواجب إعانته ليتفرغ منه إلى ذكر الله إن كان خفيفًا .

قال تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى)[1] .

فكل مايشغل قلب الفقير فدفعه جهاد وبر .

ورابعها : شهود الصفا فيهم واعتقاد كمالهم ، فلا ينقص أحدًا ولو رأى منه ما يوجب النقص فى الظاهر ، فالمؤمن يلتمس المعاذير فليلتمس له سبعين عذرًا ، فإن لم يزل عنه موجب نقصه فليشهده فى نفسه .

فـ « المُؤمِنُ مِرْآةُ أخِيهِ » .

ما كان فى الناظر يظهر فيه ، فأهل الصفا لا يشهدون إلا الصفا ، وأهل التخليط لا يشهدون إلا التخليط ، وأهل الكمال لا يشهدون إلا الكمال ، وأهل النقص لا يشهدون إلا النقص ، وتقدم فى الحديث عنه ﷺ :

« خَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوقَهُمَا شَىءٌ مِنَ الخَيْر : حُسْنُ الظَنِّ بِالله ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللهِ . وَخَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَىْءٌ مِنَ الشّرِّ : سُوءُ الظَّنِّ باللهِ وَسُوءُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللهِ » وبالله التوفيق .

---

(١) المائدة : ٢ .

فهذه من جملة الآداب التى يجب على الفقير مراعاتها والتحفظ عليها سواء كان طالبًا أو سائرًا أو واصلا ، وقد تقدمت فى أول الباب الأول ثمانية آداب ، بعضها فى حق العارف ، وبعضها فى حق السائر ، فليراجعها وليعمل بمقتضاها ، فإن الطريق كلها آداب حتى قال بعضهم : اجعل عملك مِلْحا وأدبك دقيقًا :

وقال أبو حفص رضى الله عنه : التصوف كله آداب ، لكل وقت آداب ، ولكل حال آداب ، ولكل مقام آداب ، فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، مردود من حيث يظن القبول .

وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهرًا وباطنًا ، فما أساء أحدٌ الأدب ظاهرًا إلا عوقب فى الظاهر ، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلا عوقب فى الباطن : وقال فى المباحث الأصلية :

وَالأَدَبُ الـظَّاهِـرُ لِلْعِيـانِ دَلاَلَـةُ الْبَاطِنِ فى الإِنسـانِ
وَهُـوَ أَيْضـاً لِلفقـيرِ سَنَـدُ وَلِـلغنِيّ زِيـنَـةٌ وَسُـؤَدَدُ
وَقِيـلَ مَنْ يُحْـرَمِ الأَدَبْ فَهُوَ بَعِيدٌ مَاتَدَانَى وَاقْتَرَبْ
وَقِيلَ مَنْ تَحْبِسهُ الأَنْسَابُ فَـإِنَّمَـا تُـطْلِقُـهُ الآدَابُ
فَالْقَوْمُ بِالآدَابِ حَقًّا سَادُوا مِنْهُ اسْتَفَاد الْقَوْمُ مَا اسْتَفَادُوا

وقال أبو حفص السراج رحمه الله : والناس فى الآداب على ثلاث طبقات : أهل الدنيا ، وأهل الدين ، وأهل الخصوصية مع أهل الدين .

فأما أهل الدنيا ، فأكثر آدابهم فى البلاغة ، وأخبار الملوك ، وأشعار العرب .

وأما أهل الدين ، فأكثر آدابهم حفظ العلوم ، ورياضة النفوس ، وتأديب الجوارح وتهذيب الطباع ، وحفظ الحدود ، وترك الشهوات ، واجتناب الشبهات ، والمسارعة إلى الخيرات .

وأما أهل الخصوصية من أهل الدين ، فآدابهم ، حفظ القلوب ومراعاة الأسرار واستواء السر والعلانية . فالمريدون يتفاضلون بالعلم ، والمتوسطون بالآداب ، والعارفون بالهمم اهـ .

ثم ما ذكره الشيخ من لزوم الجهل للمريد مقيد بما ذكره من احتجاجه لنفسه

ومدافعته عنها ، لأنه فى هذه الحالة صاحب جدل لتركيبه المقدمة والنتيجة ، وعليه يفهم قولهم : ما ألهم قوم الجدل إلا حرموا العمل .

وأما لو اعترف بإساءته وأنصف من نفسه لم يكن ذلك فى حقه جهلا ولا جهالة ، وقد قالوا : عدم الأدب إن كان يجر إلى الأدب فهو أدب ، والله تعالى أعلم .

ومن جملة الآداب ألا يستحقر مقامًا أقام الحق تعالى فيه عبدًا من عباده كائنًا ما كان كما أشار إليه بقوله :

[إذا رأيت عبدًا أقامه الله بوجود الأوراد ، وأدامه عليها مع طول الإمداد ، فلاتستحقرن ما منحه مولاه ، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ، ولا بهجة المحبين فلولا وارد ما كان ورد] .

قلت : ما ذكره الشيخ هنا من مؤكدات هذا الباب كلها فى الآداب . وهو ألا يستحقر شيئًا من تجليات الحق على أى حال كانت ، فلا ينبغى أن ينازع مقتدر ، ولا أن يضاد قهار ، ولا أن يعترض على حكيم .

فإذا رأيت عبدًا أقامه الحق تعالى بوجود الأوراد ، ككثرة صلاة وصيام وذكر وتلاوة واجتهاد وأدامه عليها مع طول الإمداد بكسر الهمزة : أى استمراره معه ، وهو تقويته فى الباطن وصرف الشواغل والشواغب فى الظاهر لكنه لم يفتح عليه فى علم الأذواق وعمل القلوب ، فلا تستحقرن حاله وما منحه مولاه ، لأجل أنك لم تر عليه سيما العارفين من السكينة والطمأنينة وراحة الجوارح والقلب ، بسبب هبوب نسيم الرضا والتسليم على أرواحهم وقال الشيخ زروق : سيما العارفين ثلاث :

أولها : الإعراض عما سوى معروفهم بكل حال وعلى كل وجه .

الثانى : الإقبال عليه بترك الحظوظ وإقامة الحقوق .

الثالث : الرضا عنه فى مجارى أقداره اهـ . ولا تستحقر حاله أيضًا لأجل أنك لم تر عليه بهجة المحبين ،وهى الفرح بمحبوبه ، والإكثار من ذكره ، والقيام بشكره ، والاغتباط بمحبته ، والمسارعة إلى محابه وطلب مرضاته ، والخضوع لعظمته ، والتذلل لقهره وعزته :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الهوى سَهْلُ إِذَا رَضِيَ المَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الْوَصْلُ
تَذَلَّلْ لَهُ تَحظَى بِرُؤيَا جَمَالِهِ ففِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الفرَائِضُ وَالنَّفْلُ

فكيف تستحقر من دامت خدمته واتصلت أوراده ؟ فلولا وجود الوارد الإلهى فى باطنه ما قدر على إدامة أوراده ، ولولا وارد ما كان ورد . فالوارد ما منه إليك والورد ما منك إليه .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا)[1] ، (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا)[2] ، (يحبهم ويحبونه)[3] ، (ثم تاب عليهم ليتوبوا)[4] . فالعناية سابقة ، والهداية لاحقة والأمر كله بيده . وفى التحقيق : ما ثم إلا سابقة التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أكرم المؤمنين وإن كانوا عصاة فاسقين ، وأقم عليهم الحدود ، واهجرهم رحمة بهم لا تقذرًا لهم .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : فالمنتسب لجانب الحق يتعين إكرامه مراعاة لنسبته . ثم إن كان كاذبًا فالأمر بينه وبين من انتسب إليه ، فإن أمرنا بإقامة حقه عليه بحيث يتعين عليه كنا معه كعبد السيد يضرب ولد سيده بإذنه يؤدبه ولا يحتقره . ولأبى الحسن الحرانى رحمه الله :

اِرْحَمْ بُنَىَّ جَمِيعَ الخَلْقِ كُلِّهِمِ وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَين اللُّطْفِ وَالشَّفَقَهْ
وَقِّرْ كَبِيرهُم وَارْحَمْ صَغِيرَهُمُ وَرَاعِ فِي كلِّ خلْقٍ حَق مَنْ خَلَقَهْ

المخصوصون بالعناية

ثم إن الإقامة على دوام الأوراد وهى خدمة الجوارح من شأن أهل الخدمة وهم العباد والزهاد ، والانتقال منها إلى عمد القلوب من شأن أهل المحبة

---

(١) النور : ٢١ . (٢) النساء : ٨٣ . (٣) المائدة : ٥٤ (٤) التوبة : ١١٨ .

والمعرفة وهم العارفون ، وكلهم عباد الله ومن أهل عنايته ، فلا يستحقرهم إلا جاهل أو مطرود ، كما بين ذلك بقوله :

[قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته . كلا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا][1] .

قلت : العباد المخصصون بالعناية على قسمين : قسم وجههم الحق لخدمته وأقامهم فيها . وهم أنواع : فمنهم من انقطع فى الفيافى والقفار لقيام الليل وصيام النهار ، وهم العباد والزهاد . ومنهم من وجهه الحق لإقامة الدين وحفظ شرائع المسلمين ، وهم العلماء والصلحاء . ومنهم من أقامه الحق لنصرة الدين وإعلاء كلماته ، وهم المجاهدون فى سبيل رب العالمين . ومنهم من أقامه الحق لتمهيد البلاد وتسكين العباد ، وهم الأمراء والسلاطين .

وقسم أقامهم الحق لمحبته واختصهم بمعرفته ، وهم العارفون الكاملون ، سلكوا سواء الطريق ، ووصلوا إلى عين التحقيق ، وبينهما فرق كبير ، لأن أهل الخدمة طالبون الأجور ، وأهل المحبة رفعت عنهم الستور ، أهل الخدمة يأخذون أجورهم وراء الباب ، وأهل المحبة فى مناجاة الأحباب ، أهل الخدمة مسدول بينهم وبينه الحجاب وأهل المحبة مرفوع بينهم وبينه الحجاب ، أهل الخدمة من أهل الدليل والبرهان ، وأهل المحبة من أهل الشهود والعيان ، أهل الخدمة لا تنفك عنهم الحظوظ . وأهل المحبة تنصب عليهم الحظوظ ، أهل الخدمة محبتهم مقسومة ، وأهل المحبة محبتهم مجموعة ، فلذلك دام أهل الخدمة فى خدمتهم ، ونفذ المحبون إلى شهود محبوبهم ، فلو تركوا الحظوظ وحصروا محبتهم فى محبوب واحد ، لنفذوا إلى محبوبهم ، وشهدوه ببصر إيقانهم واستراحوا من تعب خدمتهم ، ولكن حكمة الحكيم أقامتهم فى خدمتهم ، فوجب تعظيمهم فى الجملة ، ولا يلزم منه عدم تفضيل أهل المعرفة والمحبة عليهم . انظر كيف قال قال تعالى بعد ذلك :

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)[2] .

---

(١) الإسراء : ٢٠ .

(٢) الإسراء : ٢١ .

فدل على تفضيل بعضهم على بعض ، لكن عبيد الملك كلهم معظمون فى الجملة ، ولا يحب الملك أن نحقر له عبدًا من عباده ، وإن كانوا متفاوتين عنده ، والله تعالى أعلم .

وقال أبو يزيد رضى اللهِ عنه : اطلع الله على قلوب أوليائه ، فمنهم من لم يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة .

وقال أبو العباس الدينورى رضى الله عنه : إن لله عبادًا لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمحبته .

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : الزاهد صيد الحق من الدنيا ، والعارف صيد الحق من الجنة اهـ .

يعنى أن الزاهد اصطاده الله من الدنيا فقبضه وأدخله الجنة ، والعارف اصطاده الحق من الجنة فأدخله الحضرة ، اصطاده من جنة الحس وجعله فى جنة المعنى وهى جنة المعارف . وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : سبحانه من هيأ أقوامًا لخدمته وأقامهم فيها ، وهيأ أقوامًا لمحبته وأقامهم فيها .

أهل الخدمة تجلى لهم الحق بصفة الجلال والهيبة فصاروا مستوحشين من الخلق ، قلوبهم شاخصة لما يرد عليها من حضرة الحق ، قد نحلت أجسادهم ، واصفرت ألوانهم وخمصت بطونهم ، وبالشوق ذابت أكبادهم ، وقطعوا الدياجى بالبكاء والنحيب ، واستبدلوا الدنيا بالمجاهدة فى الدين ، ورغبوا فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

أهل المحبة تجلى لهم تعالى بصفة الجمال والمحبة وسكروا بخمر لذيذ القربة ، شغلهم المعبود عن أن يكونوا لا من العباد ولا من الزهاد ، اشتغلوا بالظاهر والباطن وهو الله ، فحجبوا عن كل ظاهر وباطن ، زهدوا فى التنعيم والإنعام ، واشتغلوا بمشاهدة الملك العلام ، اهـ كلامه رضى الله عنه ، هذا آخر الباب السابع .

وحاصلها : رفع الهمة ، وشكر النعمة ، وحسن الأدب فى الخدمة ، ونفوذ العزيمة بالانتقال من دوام الخدمة إلى المحبة والمعرفة .